على الغلاف

منذ بدء الحراك السوري، كان شيوخ السلفية من سوريين وغير سوريين، يتحيّنون الفرصة للهيمنة عليه، وأخذه الى لحظة «عسكرته» تحت «راية إعلان الجهاد». القصة الكاملة لوقائع هذا المسار وأسراره ليست متوافرة بعد، لكن بعض المفاصل المهمة من أسرارها أمكن كشفها من خلال رواية قياديين ميدانيين في الحراك، بعضهم انتمى إلى هذا التيار خلال الأحداث، وبعضهم جزء أصيل منه منذ البداية

قصّة إعلان الجهاد في الحراك السوري

عنصر من «الجيش الحر» في حيّ بستان القصر في حلب أمس (رويترز)

ناصر شرارة

بات لأحداث الحرب في سوريا، بعدما مرّ على نشوبها قرابة عامين، سياق واضح يُستذكر اليوم على نحو «قصة» ترويها كواليس الطرفين «المتطاحنين»، كلّ منهما على طريقته، وضمن سياق من الوقائع الخاصة به.

وثمة شيء مشترك في رواية الطرفين لوقائع «قصة حرب العامين» المستمرة، وهي أنّ كليهما وضع نصب عينيه إلغاء الآخر، مع الاستعداد لدفع أغلى ثمن مقابل ذلك، رغم شعورهما بأنّ هذا الثمن قد يكون الانتحار الجماعي.

ظاهرة «أبو المعتز»

كان يمكن، بحسب قيادي ميداني في دمشق ــ بدأ انخراطه في الحراك مواطناً مدنياً وتحول الآن إلى سلفي ــ ألا تصل القضية إلى هذا المأزق، «لو نفّذ الرئيس بشار الأسد كلاماً قاله لي يوم 21/ 11/ 2011». آنذاك كان الحراك سلمياً، وما استخدم خلاله من سلاح لم يتعدّ بعض المسدسات التي امتشقها البعض الذين لا يتجاوزون عدد أصابع اليد، كردّ فعل على قتل الأجهزة الأمنية، خلال التظاهرات، أبناءهم أو أقرباء لهم.

يستذكر القيادي أوّل شخص حمل السلاح في الحراك السوري، وهو والد شاب جامعي يدعى معتز الشعار قتلته أجهزة الأمن خلال إحدى تظاهرات الحراك السلمي في دمشق. قال والده أثناء تشييعه: «لقد قتلوه وأنا سوف أقتلهم». في التظاهرة التالية خبّأ في وسطه مسدساً، ثم تخفّى بين صفوف المتظاهرين الخلفية، ومن هناك أطلق أول رصاصة في مسيرة الحراك العسكري، التي أصبحت تضمّ 300 ألف مسلح ببنادق، ومدافع، وصواريخ «ستينغر». تقليد «أبو معتز» أصبح لاحقاً ظاهرة اتّبعها كثيرون من أقرباء ضحايا التظاهرات.

قصّة أول مبادرة

يعود القيادي ليمسك بناصية روايته عن الفرصة التي ضاعت وكان يمكنها بنظره تلافي حالة الاستعصاء الراهنة. يقول يوم 21/ 11/ 2011، رتّب لي أشخاص لديهم صلة بالمعارضة والنظام موعداً مع الرئيس بشار الأسد، وذلك بصفتي حينها أحد قيادي الحراك في دمشق وريفها. وشكّل لقائي به أول مبادرة تجاه النظام من قبل الحراك الداخلي. وفي تلك الأثناء كان والدي، وهو شيخ قريب من السلفيين وأحد خطباء مساجد دمشق، مسجوناً لدى أجهزة الأمن. ولكنني خلال حديثي معه قلت للرئيس: «أنا هنا من أجل سوريا وليس من أجل إخراج والدي من السجن، فهو يستطيع أن ينتظر حتى يتمّ إخراجه من دون واسطة».

بمجرد وصولي إلى ردهة الطابق الذي يشغله، وجدت الرئيس واقفاً بانتظاري ليستقبلني على باب مكتبه. وبخطوات متناسبة مع خطواتي قادني إلى الجلوس بجانبه، وبدا مهتماً لسماع ما سأقوله. قلت له: «بصراحة، الحراك لا يزال حتى الآن سلمياً والسلاح المستعمل لا يتعدى كونه فردياً، ويعبّر أيضاً عن ردود فعل شخصية. الحلّ الآن منوط بإنشاء حكومة مشتركة تقودها المعارضة. فالحكومة الحالية المحسوبة على سيادتكم لا تستطيع حل المشكلة». قاطعني موافقاً، وأكد أنّ «الحكومة الحالية لا تستطيع حلّ المشكلة، ولو ظلّت تحاول خمس سنوات أخرى». فأجبت: «لماذا لا تحاول إحراجنا وتوافق على الحكومة المشتركة. ولتقل أيتها المعارضة، إذا كنتم قادرين على حلّ الأزمة، فخذوها». أجاب الرئيس: «كم حجم المعارضة»؟ قلت له: «إنها الأغلبية». لم يجب، لكنه عاد إلى نقطة جوهرية ركّز عليها طوال حديثه، ومفادها أنّه يريد منا، نحن حراك الداخل، أن ننظّم أنفسنا في أحزاب وتيارات سياسية كبيرة. وبرأيه التغيير يحدث من خلال دخول هذه الأحزاب الوليدة في تيارات شعبية واسعة إلى البرلمان والحكومة. ووعد بأنّه سيفسح الطريق للمساعدة، فيما لو نظّمت نفسها، وذلك من خلال إعادة صياغة الدستور والدعوة إلى انتخابات نيابية حرّة. وقال إنّه موافق على قيام حكومة مشتركة، ولكن نجاح كلّ هذه التجربة يظلّ مرهوناً بقدرة الحراك الشعبي الداخلي على تنظيم نفسه، وفرض وجوده الشعبي كتيار وطني عريض.

إعلان الجهاد

إثر هذا اللقاء، نشطت هيئات في الحراك الداخلي لوضع دراسات لإنتاج تصوّر جديد للواقع السوري، ولكن هذا المسار لم يظهر. وبنظر القيادي عينه، فإنّ نقطة الافتراق حصلت خلال الزيارة التي قام بها وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف لدمشق، وبصحبته مدير الاستخبارات الروسية الذي سلّم الأسد «خطة بديلة»، هي الحلّ العسكري، ثمّ إثر ذلك قصف بابا عمرو، في حمص، في الشهر الأول من عام 2012. وتتالت الأحداث باتجاه رسم جبهات على الميدان.

> **تطلع الكثير من الإسلاميين في بدايات الأحداث إلى الشيخ محمد بن سرور**
>
> **المواطنون الذين خرجوا في التظاهرات الأولى لم يطالبوا بإسقاط النظام**

في أوائل عام 2012، وبعد تسعة شهور من عمر الحراك السوري، اتخذ قرار إعلان الجهاد. سبعون عالماً ضمن «هيئة علماء الشام» أفتوا بـ«أنّ الجهاد في سوريا هو فرض عام على كل مسلم». كان الشيخ يوسف القرضاوي قد سبقهم لإنتاج التبرير الشرعي، إذ رأى أن «الشرع يقول إنه عندما يولد طاغية يجب أن تفزع الأمة لقتاله».

لقد «مَرحل» شيوخ السلفية السوريون إعلان الجهاد. كانوا يدركون أنّ هذا القرار يحتاج إلى تمهيد حتى يتقبّله السوريين. فهم بلا شك لاحظوا أنّ المواطنين الذين خرجوا في التظاهرات الأولى لم يكن ضمن مطالبهم إسقاط النظام، بل رددوا شعارات مطلبية. وحينما كان يندسّ بينهم نشطاء إسلاميون، ويرفعون شعار «الشعب يريد إسقاط النظام»، كان الكثير من المتظاهرين ينفضّون. بعد ذلك صار ممكناً رفع هذا الشعار من دون مشاهدة انسحابات من التظاهرة. ثم عن سابق تصوّر وتصميم، طوّر الإسلاميون شعارات الحراك ليصبح «الشعب

عشرات الضحايا في غارات... والمعارضة تحاول اقتحام مطاري تفتناز ومنغ العسكريين

طغى المشهد العسكري على سوريا، حيث يحاول المقاتلون المعارضون اقتحام مطاري تفتناز العسكري في محافظة إدلب ومطار منغ العسكري في حلب، فيما حصدت غارة جوية على محطة وقود عشرات الضحايا في الغوطة الشرقية.

في موازاة ذلك، لفت وزير الخارجية التركي، أحمد داوود أوغلو، إلى أنّ «تفاقم الأوضاع الإنسانية في سوريا حتم على بلاده عدم إغلاق حدودها معها، واحتضان عشرات الآلاف من اللاجئين السوريين». وأشار، في كلمة له في افتتاح المؤتمر الخامس للسفراء الأتراك المعتمدين في الخارج، إلى أنّ بلاده «تتبع دبلوماسية انسانية في تعاملها مع الأزمة السورية». ميدانياً، سقط العشرات، أمس، بين قتيل وجريح جراء غارة جوية نفذها الطيران الحربي السوري على محطة وقود في الغوطة الشرقية، في ريف دمشق، بحسب ما أفاد المرصد السوري لحقوق الانسان. من جهتها، أفادت لجان التنسيق المحلية عن سقوط «سبعين شهيداً وعشرات الجرحى جراء قصف محطة وقود بالطيران الحربي».

ودارت اشتباكات عنيفة، أمس، بين القوات النظامية السورية والمقاتلين المعارضين في محيط مطار تفتناز العسكري في محافظة ادلب، بحسب المرصد، الذي أضاف «أنّ مقاتلين من جبهة النصرة، وكتائب أحرار الشام، والطليعة الاسلامية يحاولون اقتحام مطار تفتناز».

كذلك تعرضت مدينة تفتناز «للقصف بالطائرات الحربية، ما أدى إلى دمار في المنطقة المستهدفة». أفاد المرصد بأنّ مقاتلين من المعارضة أطلقوا نيران الأسلحة الآلية وقذائف المورتر على طائرات هليكوبتر متوقفة في قاعدة المطار. في محافظة حلب، أشار المرصد إلى وقوع اشتباكات عنيفة في محيط مطار منغ العسكري، الذي يحاول المقاتلون المعارضون اقتحامه. من ناحية أخرى، أفادت وكالة الأنباء السورية «سانا» بأنّ وحدات الهندسة التابعة للجيش السوري أحبطت عمليات إرهابية بواسطة 20 عبوة ناسفة زرعت في عدد من أحياء حلب القديمة. وأضافت «سانا» أنّ وحدة من الجيش السوري قضت على عدد من أخطر المسلحين، بينهم قائد ميداني في منطقة الخفسة بريف حلب، أمس.

وفي مدينة السفيرة في ريف المحافظة، «تجددت الاشتباكات بين القوات النظامية ومقاتلين من جبهة النصرة وكتائب أخرى في محيط معامل الدفاع، التي يحاولون اقتحامها منذ أسابيع»، بحسب المرصد الذي أشار إلى أنّ الطيران الحربي استهدف بلدتي حيان وحريتان.

وأغلقت السلطات السورية، أول من أمس، وللمرة الأولى مطار حلب الدولي بسبب استهدافه بالقصف من مقاتلي المعارضة، بحسب ما ذكر مصدر ملاحي لوكالة «فرانس برس».

في غضون ذلك، استمرت الاشتباكات بين القوات النظامية ومقاتلين «من جبهة النصرة وعدة كتائب أخرى في محيط معسكر وادي الضيف» في محافظة ادلب. وفي ريف ادلب تعرّضت بلدة بنش للقصف من الطائرات الحوامة التي «ألقت براميل متفجرة على البلدة بالتزامن مع قصف مدفعي»، بحسب المرصد.

في ريف دمشق، قتل 12 شخصاً من عائلة